أبوالحسن الندوى.. في س

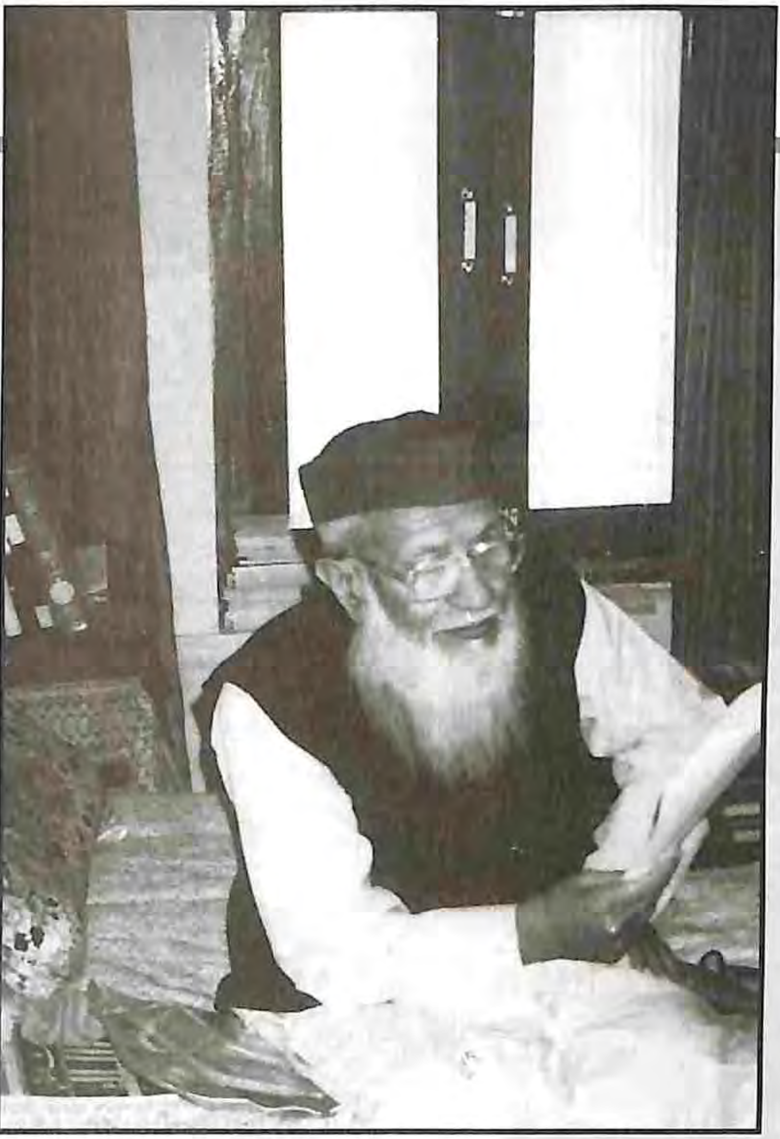

كنتُ أتطلعُ إلى الحديث المستفيض عن الداعية الأمثل، والباحث الأكمل، السيد أبي الحسن الندوي، ولكنّي أمتنعُ فجأة : لأني أعلم أن ما بنفسي نحو الرجل لن ينقل إلى القراء إلاّ مبتورا مبتسراً، لايمثل حقيقة مشاعري الصادقة، إذ هي أقوي وأشد من أن تظهر على حقيقتها بين السطور، مهما حاولت تتبعها الراصد، ثم طَلَبَ مني أخي الأعز الأستاذ الدكتور عبدالقدوس أبوصالح نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية، أنْ أكتبَ سيرةَ أبي الحسن الذاتية، وأنا أعرفُ تهيبي الشّديد من الحديث عنه، وكدتُ أعتذُر، ولكنّ تكليف الدكتورَ الصديق لي هو أمرُ لارجاء، فقلتُ سأكتبُ ما أستطيع كتابته، وما علّي إذا لم أستطع أنْ أقومَ بغير ما أطيق، إذ لايكلف الله نفسا إلا وسعها.

وكان أشدّ مايلفتني في سيرة أبي الحسن، أنه أشرق في محيط العالم الإسلامىّ بَدْراً مكتملا، فعهدنا بصاحب الفكرة، وعاشق البحث أن يتتبع سنة التطور، فيبدو ناشئاً صغيرا، ثم تمر به الأعوام حتى يكتمل نضوجه، كما يبدو البدر في أول الشهر هلالاً، ثم يسير نحو الكمال، حتى يكتمل إشراقه في الليلة الرابعة عشرة، ولكن أبا الحسن أصدر كتابه باللغة العربية (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) في مطلع حياته الفكرية، فكان حدثاً هائلاً في دنيا الفكر، لأنه رجّ القراء رجّاً، وكأنه نفخ في الصور فأحيا نفوسا، وأشعل أرواحاً، وأخذ الناس يقرأون

مبهورين، يخافون أن تنفد صفحات الكتاب، فلا يستشعرون هذه اللذة الروحية بعد انقضاء الصفحات، وفيهم من كان يقرأ الصفحة والصفحتين ثم يطوي الكتاب دقائق معدودة، ليصعد زفرة مكتومة، أو يعلن آهة موجعة، وأشهد أمام الله أن بعض الصفحات التي كانت تصور فجائع المسلمين على أيدي أعدائهم، وطغيان العتاة على بلادهم، كانت تضع فوق كاهلي وأنا أقرأ أطناناً من الحديد الصلب، فلا أستطيع أن أتحرك، إلا بعد أمد يقصر أو يطول، هذا الكتاب الخالد قد رج القراء رجاً، والعجيب أن أستاذنا الدكتور أحمد أمين قد كتب مقدمة الكتاب في طبعته الأولي دون أن يقرأ، وأجزم عامداً أنه لم يقرأه، والا لما قال : إن بعض عبارات الكتاب ضعيفة، لأن المؤلف يكتب بغير لغته!! والكتاب في المنزلة العليا من الأسلوب البياني المشرق، وتعبيره الساحر الذي لايبلغه باحث كبير كالدكتور أحمد أمين، لأن صاحب فجر الإسلام وضحاه وظهره باحث مؤرخ، لايملك سحر الأسلوب، الذي يتمتع به صاحب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) ولقد قرأت في بعض ماكتبه أبوالحسن أن هذه المقدمة قد أضعفت الكتاب، وأقول إن هذا تخيل فقط، لأن القارىء النبيه قد عرف بُعْد هذه العبارة عن الصواب، وهو مقياس الحكم أما القارىء، الذي لايفرق بين أسلوب وأسلوب، فسيان يصدق أو أن يكذب!

وقد توالت طبعات الكتاب حتى بلغت بضع عشرة طبعة، وأغفلت مقدمة الطبعة الأولى، حيث قام الأساتذة محمد يوسف موسي وسيد قطب وأحمد الشرباصي بكتابة مقدمات صادقة، شفت صدور قوم مؤمنين، وأذهبت غيظ قلوبهم، ولا أنكر فضل الدكتور أحمد أمين حيث احتفل بالكتاب، وطبعه في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر التي يرأسها، فكان صدور الطبعة الأولي عن هذه اللجنة ذات المستوي العلمي الباهر نصراً من الله. وفتحا قريبا اتصلت بعده الفتوح الممتدة، لأن فكر أبي الحسن كالشجرة الطيبة ذات الثمر المستطاب، تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس.

لم يتح لأبي الحسن أن يكتب هذا السفر الرائع في مطلع شبابه دون أن يعتمد على موهبة رائعة ممتازة، جرت من عقله مجري الماء في فروع السَّرحة الفينانة، ذات الظل الوارف، ودون أن يعتمد على نشأة علمية باهرة، وأعرق منازل الفضل بالهند، وأخصب منابت العزة والكرامة والشموخ، ودون أن يعتمد على اطلاع شامل محيط في كتب متعددة، ولغات متنوعة، اطلاع ناقد يعرف سطور الحق فيجتبيها، ويفرد سطور الباطل إذ يحتويها، ومن وراء ذلك كله روح إسلامية عالية، هي قبسة من قبسات رجال الصدر الأول من تاريخ الإسلام، فقد عايش أبوالحسن هؤلاء الرجال معايشةالعاشق، المولع بكل ما يقرأ من أمثلة التضحية والفداء، ونماذج الإيمان والإيثار، فكانت سير هؤلاء ومن تبعهم بإحسان ضياءً لروحه قبل أن تكون غذاء لفكره، وقل ما شئت في تلميذ نابغة، أساتذته الأكرمون رسول الله ﷺ وصحابته المختارون.. مع من وليهم من أئمة السلف الصالح، خلفا عن سلف، حتى انتهت السلسلة الرائعة إلى والده الكريم، وكلهم خيار من خيار.

ولد أبوالحسن بقرية (تكيَّة) من قري الهند، في المحرم من ١٣٣٢هـ، فنشأ في أسرة عربية كريمة، ترجع بأصولها العريقة إلى الحسن بن على عليه السلام، أصولها التي ظلت تتناسل في أكرم بقعة في الأرض، في مكة التي شرفها الله بالبيت العتيق، وبكونها مشرق الإسلام ذي الهداية الإنسانية، التي أخرجت العالم من الظلمات إلى النور، ثم انتقلت إلى المدينة المنورة حقبة من الدهر، حتى كان مطلع القرن السابع الهجري، فرأي عميد

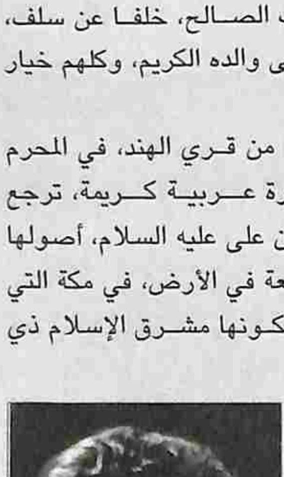

سيرته الذاتية

بقلم الدكتور:

محمد رجب البيومي

الأسـرة إذ ذاك السيـد قطب الدين بن مـحمـد المدني رؤيا منامـيـة، أوحت لـه أن ينتـقل من المدينة المنـورة إلى الهند مجاهداً في سبيل الله! وقد صدع الرجل بالأمر على مشقة الهـجرة، والنزول في أمـاكن لم يعـرفـهـا من قـبل، ولكنه اطمأن حين وجد الاسـتقبال الكريم. وحين ذاع فضله فـيما تناول من أحاديث الدعـوة، وشروح الفقه، وقـد تبوأ مكان الصدارة في مهـاجره، واشتهر أبناؤه ومـن وليهم بالدعوة إلى سبيل الله، عملاً بالارتحـال إلى أقصى البقاع، مذكرين بأيام اللـه، وبحـثـا بـالتـأليف العـلمي في فـروع اللـغـة والشريعة، ولو بحثت عن المكتبـة الإسلامية بالهند، لنطقت بآثار هذه الأسرة الماجدة، حتى جاء يوم بزغ في سمائها نجم سلطان المسلمين أحمد بن عرفـان، وهو عالم بطل لو تعارف المسلمون في بقـاع الأرض سير رجالهم في الوطن الإسلامي الكبير، وطن الإسلام، لكان اسم أحمد بن عرفان الشهـيد يتردد في آفاق آسـيا وأفريقيـا، كما يتردد أسـماء شهـداء الإسلام من ذلك العصـر الأول إلى الآن؛ لقد تطلع الشهـيد المغوار إلى ماحـوله، فأزعجـه أن يري ويسمع عن فظائع طائفة السيخ في البنجاب، إذ قدموا على قتل الأبرياء من المسلمين. وهدم المنازل، وهتك الأعراض، فـغضب لدين الله ولإخـوته في الإسلام، ورفع رايـة الجهـاد، واستنفـر الأبطال من كل صوب، فهرعـوا إليه ملبين، وبويع بالإمارة في جمادي الآخرة سنة ١٢٤٢، ثم قـاد الجيوش من نصر إلى نصر، حـتى إذا أعيت أعداءه الحـيلة لجأوا إلى الدس، حين هالهم أن ينشىء الإمـام أحـمـد دولة إسلامـيـة على الحدود الشـمالية من الهند، أثبتت قـوة الإسلام وحميـته، وبقـيت أربع سنين ترفع رايـة الإسـلام، حـتى ارتاعت بريطانيـا، وأمـدت السـيخ بالسـلاح الأوربي الحـديث، ثم استـعانت أيضـا برجال السـوء، ممن جهلوا خـبث المحتل، وأغراهم المـنصب والذهب والجاه. فـجعلوا يثيـرون الفتن، ولجأ الإمـام إلى كشمـير مجـاهدا، ولكن اجتمـاع الإنجليز والسيخ والطابور الخامس من المنافقين، قد كان أكبر من أن تصمـد أمامـه القلة المؤمنة، ولكنها آثرت الاسـتبـسال على الفرار، واستـشهد الإمام في مـعركة (بالاكوت) استـشـهاد الحسين في «كـربلاء»، وهي مآس تتكرر على الزمن، دون اعتبار.

إن تاريخ ابن عرفان لم يذهب عن خواطر المسلمين جميعاً بالهـند، ولكنه رسخ رسـوخ الطود فـي أسـرته الـكريمة، فجعلت تتناقل آثاره، وتتحدث عنه، ثم دوّنت أخباره. وكان والد أبي الحسن أحـد العلماء الأفاضل، الذين كتـبوا تاريخ الشهـيـد، وهو لم يكتب تاريخ الشهيد وحـده، ولكنه سجل تاريخ الأفذاذ من المسلين على مر العـصور في كتابه الرائع (نزهة الخواطر) ذي الأجزاء الثمانية. وقد اشتمل على نحو خمسة آلاف ترجمـة لأعيان المسلمين في الهند، وأبوالحسن وإن لم يتمتع برعاية والده العلمية غـير أمد قصير، إذ ترك والده الدنيا إلى لقـاء ربه وهو في التاسعة من عـمره، فإنه وجد في هذه الموسوعة الثمينة خير زاد لروحه، لقد قرأ عن أفذاذ المصلحين قـراءة جعلته يتهـيأ لدور كبيـر، يضيف به ترجمة حافـلة إلى هذه التراجم، ولم تكن «نزهة الخواطر»، هي سلواه المختارة وحـدها في عهد اليفاعة، بل دفـعته إلى مـثـيـلاتهـا في التـراث الإسـلامـي، وفي كـتب التـراجم والطبقات، وهذا البحر الزاخر مـن المعارف التاريخية يحيي النفوس المتعطشة، ويدفعها إلى الاحتذاء الحسن، لاسيما إذا كان القـارىء أباالحسن ذا النفس المتـوثبة الطامحـة للعلا، ونحن نري أمـثلة شتي في كـتب أبي الحـسن، قطفهـا من حـدائق هذه الكتب، وكم قرأهـا أناس من قبله ومن بعـده، ولكنهم لم يحسنوا استغلالـها، على النحو الذي اهتدي إليه الشاب البصير، وإذا أردنا أن ننشىء شبـيبة داعية، تعرف الإسلام الـصحـيح في سيـر رجاله، فـعلينا أن نكتب هذه التراجم المجيـدة بلغة العصر، لنفتح الأبواب الفسـيحة، إلى من يريدون التنزه في بساتين الأجداد، وهم كثيرون.

إن رحـمـة الـلـه عـز وجل تسع كل شـىء، فـحين حـرم أبوالحسن من رعايه والده العالم العـامل البحاثة، لم يحرم

بعد رحيل والده.. لم يحرمه الله من رعاية اثنين

من رعاية اثنين عزيزين أثيرين هما: أمه وأخوه، أما أمه فكانت قارئة كاتبة شاعرة. جمعت هذه المزايا في عصر كان أكثر المسلمات شرقاً وغرباً لايلتفتن إلى تعليم، ومن تتعلم منهن تقف عند حد محدود، لايتجاوز معرفة القراءة والكتابة، إلا من نشأن في أسر الفضل والفضيلة، مثل والدة أبي الحسن! كانت الوالدة الفاضلة تحفظ القرآن الكريم، وتقرأ تفسيره في كتب التراث، كما كانت تكتب المقالة، وتنشىء القصيدة، وفي هامش ص٢٤ من مقدمة كتاب (ماذا خسر العالم الإسلامي بانحطاط المسلمين) أنها طبعت عدة كتب، ومجموعات من الشعر، كلها مناجاة للّه تعالى ودعاء ضارع. كما أرسلت مدائحها في رسول الله ﷺ، وقد كنت أرجو أن أقرأ بعض ماكتبت ونظمت، ولكن يدي لم تصل منهما إلى شيء، هذا بعض مايقال عن الأم الكريمة، أما الأخ الشقيق فهو الدكتور السيد عبدالعلى عبدالحي، وقد جمع بين الثقافة الدينية. والثقافة العصرية، فكان إلى تعمقه في بحوث الدين متفنناً عارفا بالتيارات الفكرية المعاصرة في العالم، وكانت مكتبته ملأى بالأسفار في الاتجاهين، وهذا من حظ أبي الحسن الدارس الناشىء، لأنه وجد من وجّهه إلى القديم والجديد معا، وقد ظهر أثر ذلك في إنتاجه العلمي الحافل، لأن نظرته الشاملة الناقدة لوجوه المفاسد في الشرق والغرب معاً لم تأت إلا من اطلاع شامل، على مختلف التيارات المتعارضة، ونحن نجد لدينا قوماً ينكرون المفاسد الغربية، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ أبي الحسن في هذا المجال، لأنهم لم يقرأوا ماقرأ عن هذه المفاسد، وإذا قرأوا لم يرزقوا الفكر الثاقب، والروح العالية. والقلم الصوال، ونحن نجل هذا الأخ ونعرف فضله في رعاية الأخ اليتيم، وإذا كنا لم نطلع على شيء من آثار الوالدة الكريمة، فقد اطلعنا على بعض آثار الأخ الأديب العالم، ومن بين ما قرأناه في مجلة الرسالة المصرية مقال تحت عنوان (أسطورة)، والمقال يدل على أن الأخوين العزيزين يصدران عن نبع واحد، فحديث السيطرة الغربية، والتخلف الحضاري في الشرق، وانهماك المترفين في الملذات، دون نظر إلى النفع العام، هو شبيه أحاديث أبي الحسن، وكنت أود أن أقتبس منه سطورا تنطق بما أعنيه، ولكني لاأعجب بعد قراءة مقال (أسطورة) أن يكون كاتبة هو الشقيق الذي تولي رعاية أخيه، وطبعه بطابعه الاسلامي الحار المتوهج، والشقيقان — بعد — أثر من آثار الأب المجاهد، والوالدة الكاتبة الشاعرة. وقديما قال القائل الحماسي:

أرىَ كلَّ عـــرق نازعـــاً لأرومـــة
أبَي نـسبُ العــيـدان أن يتــغــيــرا

وفي الثانية عشرة من عمره، بعد رحيل والده الكريم بثلاثة أعوام، وجّه الأخ الأكبر أخاه إلى تعلّم الإنجليزية والعربية معا — فوق تعلمه للأردية — وهو توجيه منتظر من أستاذ يعرف فائدة الاطلاع المستوعب للتيارات المتضاربة، في الشرق والغرب، حتى إذا بلغ من اللغتين حد الإجادة على يد أساتذة من الفضلاء، دفعته نوازعه الإسلامية إلى التضلع من الأدب العربي، وكان فضل الله عليه عظيما، حين لم يتجه إلى نفر من كتاب الخلابة اللفظية

■ الشيخ أبو الحسن في منزله.. يتوسط د. عبد القدوس أبو صالح ود. أحمد براء الأميري.

...عزيزين هما: أمه وأخوه.

في عصور الصنعة البديعية، بل اتجه إلى كتب أربعة هي: «كليلة ودمنة» لابن المقفع، و«نهج البلاغة» للإمام عليّ، و«دلائل الإعجاز» لعبدالقاهر الجرجاني و«حماسة أبي تمام». وهي كتب تنشيء أديباً في مثل سنه، لأن «كليلة ودمنة» و«نهج البلاغة» مثلا للأدب الإبداعي، و«دلائل الإعجاز» مثل رائع للنقد البياني المستنير، أما «حماسة أبي تمام» فهي - في رأيي - من أبدع المختارات الممتازة في الشعر العربي القديم، وبعد هذا التضلع من (التراث) التحق أبوالحسن بجامعة «لكهنؤ». وهي جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الانجليزية. وفيها قسم لآداب اللغة العربية، اختاره أبوالحسن عن شوق، ووجد من أستاذه الدكتور تقي الدين الهلالى المراكشي رائداً بصيرا، تهدي للتي هي أقوم في استيعاب التراث الأدبي بلغة العرب. ومن بعد الجامعة التحق بالندوة؛ ليلاقي كبار العلماء في الهند من أساتذتها. وليحضر دروس الشريعة عليهم. ولم يرو ظمأه من ذلك كله، بل دفعه هيامه بالمعرفة إلى الالتحاق بدار العلوم - ديوبند مدة شهور، وكأنه رأي أنه ألمّ سلفا بمقرراتها فاقتصر الأمر، ثم سافر إلى (لاهور)، وقرأ التفسير القرآني على كبار علمائها. وتحققت أمنيته السعيدة بلقاء شاعر الإسلام محمد إقبال، فحرص على مجالسته، والإفادة من توجهه، وهي صحبة عادت عليه بأجزل النفع؛ علماً وسلوكاً. وسأخصها قريبا ببعض التفصيل.

أما بذرة الأديب المتطلع إلى السبق، فقد برزت في هذا الأمد - أمد الطلب العلمي والتحصيل الثقافي - إذ دفعته همته الواعية إلى كتابة مقال تاريخي، وهو في سن الثامنة عشرة، يتحدث عن جده المجاهد أحمد بن عرفان، شهيد الإسلام. وإمام أهل التوحيد، وقد ألمحنا إلى بعض حديثه من قبل، وقد كتبه باقتراح من أخيه فصادف إعجابه. وبعث به إلى مجلة (المنار) المصرية التي يقوم على إصدارها حجة الاسلام في هذا العصر السيد محمد رشيد رضا، وهي ذات صدي مسموع في ربوع الإسلام، فوجد السيد رشيد في المقال مايرشحه للنشر عن اعجاب. وكان أول مقال كتبه الأديب الناشيء، ولاشك أن نشر المقال في هذه المجلة الممتازة، قد بعث في نفس أبي الحسن ثقة تمده بالعزم الطامح، والجد المثابر، إذا وجد «المنار» كفيلة أن تضعه في صفوف كتابها، وإذا كانت أعداد «المنار» التي تصل إلى الهند ذات قدر محدود، فقد حرص أبوالحسن على أن ينشره مستقلاً في رسالة طبعها تحت عنوان (ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد) وقد ظهرت في سنة ١٣٥٠هـ فأحدثت صدي قويا بين العلماء والباحثين، وكانت بمثابة فجر صادق، يبشر ضوؤه المشّع بقدوم صبح مبين!

اهتدي أبوالحسن بعد نشر مقالة بالمنار إلى صميم رسالته، التي يجب أن يحملها إلى العالم جميعه، لا إلى العالم الإسلامي وحده، هذه الرسالة هي الدعوة إلى الله كاتباً ومتحدثا. أما كاتباً فقد ظهرت بشائر توفيقه فيما كتب بالمنار. وفيما نشر بصحف الندوة. وأما متحدثاً فقد ألف — على حداثة سنه — أن يصعد إلى المنبر خطيبا. وأن يحادث المستمعين في الندوة محاضراً، فيحظي بالقبول، إن لم يكن يحظي بأكثر من القبول. وذلك وحده زاد يعين المدلجين على السري في ظلمات الطريق.

قلت إن أباالحسن ألف أن يصعد المنبر خطيبا. وذلك توفيق من الله، ساقه إليه على يد أحد أساتذته. فقد سافر إلى (دلهي) في رحلة علمية فشاء القدر أن يلتقي براعيها المجدد الكبير الشيخ محمود إلياس، والشيخ إلياس لايعتمد في دعوته على الكتابة الصحفية. أو التأليف العلمي. ولكنه يرحل إلى الجماهير في كل مكان ، فينتصب واعظاً مرشدا. يتفجر البيان من جوانبه. كما ينبثق الماء من النبع الصافي، وهو رحالة لايهدأ، تراه كل يوم في قرية أو مدينة. يقابل بالتجلة والترحاب. وتنتظر الجموع قدومه كما تترقب الأرض الجديبة نمير الماء، وقد تتصل الرحلة إلى هذه الربوع المتجاورة شهراً أو شهرين، دون أن ينقطع يوماً

اهتدي أبو الحسن إلى صميم رسالته التي يجب أن

واحداً عن ارتقاء المنبر، وترديد الإرشاد، وأبوالحسن يسمع معجبا مسرورا، ويري انفعال السامعين بما يسمعون، فيعلم أن اللقاء المباشر يفوق تأثيره الحماسي مايكتب في صحيفة، أو يرصد في كتاب، ومن ثم عزم أبوالحسن على أن يكون داعية في المجتمع بلسانه، كما هو كاتب للقارىء في مؤلفاته، وكان أستاذه الشيخ إلياس صادق النية، مخلص السريرة، أسلم وجهه إلى الله وهو مؤمن، فعظم تأثيره النفاذ، وأصبحت كلمته التي ينطق بها أشعة من الضياء، تنتقل إلى الوجوه، فتملؤها نورا، وإلى القلوب، فتصقلها صقلاً يطرد عنها نوازع السوء، وهوابط الوساوس، وهناك كان الرجل قدوة في خلقه، كما هو قدوة في وعظه، واعتزم أبوالحسن أن ينحو منحاه! وقد كان منه بمكان قريب، فالمبادىء هي المبادىء، والسرائر هي السرائر، ولم يترك الشيخ حتى صمم على أن يدعو بلسانه كما يدعو بقلمه، ووفقه الله في إرشاده اللفظي، إذا كان يملك أسلحته الماضية، بل كان يملك أكثر مما يملك أستاذه، لأن الشيخ الكبير خطيب منبر، يحدث العامة بما يجذبهم، وليس له سبحات أبي الحسن في مطاوي الأسفار، وحواشي المجلدات، فإذا دهشت الجموع إعجاباً به خطيباً داعية، فلنحمد الله أن اجتاب هذا السبيل.

على أنّ أستاذاً ملهماً آخر أذكي جمرة الشوق في قلب أبي الحسن، أذكي جمرة الشوق في قلبه ثم زاد فطار بروحه إلى آفاق رحيبة، تشرق بالنجوم، ويهب بها النسيم المنعش محملا بأطيب العبير، هذا الملهم هو الشاعر العالمي محمد إقبال؛ فقد كان لقاؤه به في (لاهور) مصدر ارتقاء شعوري لايسهل مرتقاه، وكل المثقفين في العربية يقرأون إقبال، ويرددون مترجماته عن الأردية والفارسية، ولكنهم لايلمسون تأثيرها النفاذ، الذي تتموج كهرباؤه في اللغة الأصلية التي نظم بها إقبال، وأذكر أني قلت في قصيدتي عن الشاعر الكبير متحدثا عن شعره(١)

معان جلتها حكمة الشرق فانثنت
تُدلّ على أهل الحجا أيّ إدلال
وتغمض أحياناً فتبدو عويصةً
كأنك منها واقف بين أجبال
إذا أنقص التعريبُ بعض بريقها
فإن سياق النص يوحي بإكمال

قلت ذلك قبل أن أقرأ ماحكاه أبوالحسن عن الشاعر إقبال، فقد قدمه لقراء العربية خير تقديم، حين أصدر مؤلفه اللطيف (شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال) فتحدث حديثاً رائعا عن حياته، وعن العوامل التي كونت شخصيته، وآراءه في التعليم والعلوم، والجيل الجديد، وحين تحدث أبوالحسن عن الإيمان، بين هذه العوامل، هذا الإيمان الذي رفع الشاعر عن الاحتفال بمغريات المادة وعن تيار الحضارة الغربية الجارف، ودفعه إلى مقومات الحياة لدي الأمة الإسلامية، كما تغني بها إقبال، مبيناً جناية المدنية الحديثة على الإنسان، ثم حديثه عن القرآن الكريم، وأثره الضخم في تحديد رسالة الشاعر الكبير. وعن خبرته بالنفس الإنسانية شرقاً وغرباً، حيث تحدث عن ذلك كله خلت أن أبا الحسن يتحدث عن نفسه لا عن نفس إقبال. وليس معني ذلك أنه أضاف إلى شاعر الإسلام مالم يقله، فقد استشهد بنماذج من شعره، ليس مكانها في هذه السيرة الذاتية، ولكن معناه أن المصلحين العظيمين التقيا على هدف واحد، وأن إقبال قد صدق التعبير عن نفس كل مؤمن صادق الإيمان، بعيد النظرة، واسع الأمل في عون الله، وكان تجاوب أبي الحسن معه تجاوب حمامتين أليفتين، تصدحان بالغناء في دوحة واحدة، إذا حنّت الأولي رنّ صداها في نفس الثانية، فهتفت بالشجو المديد، أما مآخذ إقبال على التعليم المعاصر، وأما آراؤه في العلوم والآداب، وأما تصويره للشباب المسلم، فيستطيع باحث فاضل أن يشرح كل ذلك، مقارناً بما سجله أبوالحسن من آراء، تتقارب إن لم تكن تتماثل مع هذه الآراء، ويكفي إقبالاً

...ملها إلى العالم جميعه.. وهي الدعوة إلى الله .

أن يسجل أن المسلم هـو الإنسان الوحيـد، الذي يعد خطراً على الباطل، في كل زمان ومكان، وأن المسلم قد بني العالم المستنير في الزمن البعيد، وهو مهيأ اليوم لإعادة البناء في العالم الحديث، وهي عناصر موجـزة، نجد تحليلها الشافي المبسوط في مؤلفات أبي الحسن، على نحو مبهج أنيق، لقد أحببت إقبالاً قبل أن أفهمه، أحببته عاطفياً وجدانيا، ووقفت أمام غوامضه حائراً لأاهتدي إلى منار وضيء، ثم قرأت أبا الحسن ومـا كتـبه عن إقـبال، فأحـببـته وجدانيـا وفكريا، وزالت أكثر الغوامض من نفسي، وهتفت من أعماقي، رحم الله إقبالاً، ورحم الله أبا الحسن، وأسكنهما فسيح جناته.

رجع أبوالحـسن من «دلهي» وفي نفـسه قـبس من روح شيخه إلياس، كـما رجع من «لاهور» وفي نفسه جذوة من شعلة إقـبال، وقـد صمم على أن يرحل كـما رحل أسـتاذه الداعيـة، ولكن إلى أين يرحل؟ لقـد قصـر الأستاذُ الـشيخُ جـهده على الربوع الـهندية وحدها، وقـد اسـتيـقظت على دعوته من سباتها الطويل، وأولي بأبي الحسن أن يرحل لا إلى قري الهند وربوعها المتـرامية. بل إلى العالم الإسلامي في حواضـره الزاهرة، إن العالم الاسلامي في حـاجة إلى رحالـة مثله، يقـابل علماءه ويناقش مـفكريه، ويجتـمع مع شبابه، ويدرك أغوار هذه النفوس الحائرة، بين أمواج الفكر المضطرب شرقـاً وغرباً، وتلك رسـالـة صعبـة، هي رسالة جمال الدين الأفـغاني من قبل، ولكن جمـال الدين الأفغاني كـان نوراً وناراً، وأبوالحـسن نور فـحـسب، إذ لايميل إلى إشـعـال الـثـورات، ولكنه يدعـو إلى سـبـيل ربه بالحكمـة والموعظة، ويحـاول بالتي هـي أحسن كـمـا أشـار القـرآن الكريم.

رحل أبوالحسن إلى الحجاز مـرات، وإلى مصر والمغرب، والشام وتركيا، وزار أمريكا والدول الأوربية، وطوّف أكثر عواصم العـالم الإسلامي، وكانت رحـلاته عظيمة التـأثير؛ لأنَّ اسمه كان يسبق شخصـه، وكان أحباؤه وخصومه في الرأي يحرصون على لقائه، فالاحـبّاء ليطفئوا غليل الشوق برؤيته، وليمـتعوا أنفسهم بكلمـاته، والخصوم يريدون أن يسمـعوا المزيد مما يبـدعه كل يوم دون إمهـال، وعسي أن يجدوا مجالا للرد، وموضعاً للحوار، والرجل يعرف مكانته من هؤلاء وأولئك، ويلبس لكل حالة لبوسها، ويؤوب مؤزَّراً بنصر الله.

وتحـدث عن رحلاتـه في كتب مـسـتقلـة، وفي مقـالات سائرة، وعبر عن شعـوره الصادق دون مجاملة للباطل، إذ رأي رحلته لاتتم على وجـهها الصحـيح، إلا إذا أفصح عن مراده دون لثـام، والحقيـقة لاتؤلم إذا سـيقت في أسلوب أدبي يترفع عن التعريض، وينأي عن الاسـتعلاء، وكم كان عجباً لأبي الحسـن أن يدرك أن المسلمين في العالم الفسيح يكادون يعـرفون شيـئاً عن مـسلمي الهند، فهـو يقول في مطلع مـقال سجلـه بمجلة الأزهر(٢)، كنت في رحلتي إلى الشـرق الأوسط، أواجـه سـؤالاً يتكرر، ويوجّـه في كل مـجلس وفي كـل مناسـبـة، عن عـدد المسلمـين في الهند، فـأجيب بأنهـم اربعون مليـونا (كـان ذلك سنة ١٣٨٠هـ) فـيندهش الناس ويقـول بعـضهـم ياسلام! ولولا ثقـتـهم بالضيف لسارعوا بالتكذيب، لأنهم كانوا ينتظرون أن يكون المسلمـون في الهند بعـدما سـمعـوا عن موجـات الهجـرة الكبيرة مليوناً واحداً! لقد كانت هذه مفارقة لاتفارقني أينما حللت ونزلت، مفاجأة للطرفين، مـفاجأة للمسلمين عن عدد إخوانهم في الهند، ومفاجأة للمجيب عن استغرابهم، وهناك كانت مفاجآت أخرى، ما يتصل بالمسلمين في الهند، فالذين كانوا يعرفون أن في الهند عـدداً كبيراً من المسلمين ـــ على قلة هؤلاء ـــ كـانوا يعـتـقدون أن المسلمين لا شـأن لهم في هذا القطر العظيم، ليـست لهم حضـارة خاصة، ولا ثقـافة واسعة. ولا آداب سامية، ولا مـؤسسات علمية، ولا نشاط، لا إنتـاج في علم وأدب، إنما هم أمة ذلّت في كل مـقومـات الحـيـاة، وفي كل مـا تعـتـز به أمـة من علم وأدب، ودين واجتماع، وأخلاق ومروءة، بل كان البعض يسأل : هل في الهند مسـاجد؟ هل فيـها مدارس دينيـة؟ هل عندكم علماء؟

صدع الشيخ بكلمة الحق دون محاباة .. في نق

هل يوجد من يجيد أن يقرأ القرآن؟ هل فيها من يفهم العربية؟

مضي الكاتب الكبير يجيب في مقاله الرائع عن هذه الأسئلة، ولكنه عاد باللوم على تقصير علماء الهند، في القيام بمهمة التعريف بهذا القطر العظيم، ومضي يفصّل ما أنتجت الأمة الهندية المسلمة من آثار علمية رائعة في الحديث، والفقه، والأصول، وعلم الكلام، والسيرة النبوية، ويعدد أسماء العلماء الكبار من مؤلفي الموسوعات، الأجزاء المتتابعة، ويفيض في القول حين يتحدث عما أضافة المسلمون إلى ثروات البلاد، وما قاموا به من إصلاحات قائلا في حديثه الرائع: «لقد كان ما اكتسبته الهند من المسلمين أعظم وأغلي مما استفاده المسلمون منها، وكان دخولهم في هذه البلاد فتحاً جديدا في تاريخها وحياتها، ومكسبا عظيما» والبحث شاف واف، والرجوع اليه يصحح أوهاماً كثيرة يجب أن تزول.

■■ شجاعته الأدبية:

على أن لأبي الحسن شجاعة أدبية تكاد تكون منقطعة النظير، فهو في كل مكان يرحل إليه، يخطب في النوادي العامة، ويلقي المحاضرات الثقافية في ساحات العلم، وينشر مايريده في أمهات الصحف، لأن اسمه الكريم يسبقه كما قلت من قبل معلنا قدره العظيم، ومن مظاهر هذه الشجاعة الأدبية، أنه في مقالاته هذه يرسل نقداته الجريئة لبعض مالا يوافق عليه مما يري ويسمع، يرسلها في أمهات المجلات المقروءة؛ ليصدع بكلمة الحق دون محاباة، أذكر أنه زار مصر في سنة ١٩٥٠م وخالط كتابها ومفكريها، وعقد ندوات ممتازة بجمعية الشبان المسلمين وغيرها، ثم عنّ له أن يكتب في مجلة الرسالة كلمة تحت عنوان (اسمعي يامصر) بدأها بالإشادة بما رآه من محاسن، ثم وجه الأمة المصرية إلى رسالتها الحضارية، في إفهام الغرب مايجهله من مزايا العرب والإسلام، لأنها بكتابها وجامعاتها ومفكريها أقدر بلد يقوم بهذه الرسالة، حتى إذا انتهي من ذلك، جاهر بنقداته الجريئة في مثل قوله(٣).

«احرصي يامصر على رجولة أبنائك وأخلاقهم، وصوني شبابهم وشرفهم ودينهم وصحتهم من أن يعبث بها العابثون، أو يتجر بها المتجرون، ممن يعيشون على أثمان الأعراض والأخلاق، ويحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لتروج بضاعتهم، وتزدهر تجارتهم، أولئك هم أصحاب الروايات الخليعة، والصور العارية، والأدب المكشوف، كافحي يامصر الوباء الخلقي، الذي يقضي على حيوية الأمة، وطاردي كل من يحاول أن يزعزع العقيدة في شعبك، إن العالم العربي قد أحلك من نفسه محلاً رفيعا، ووضع ثقته فيك؛ فلا تصدري إليه من أدبك وموضوعاتك مايرزؤه في إيمانه وأخلاقه، إن هذه الروايات الخليعة، والأدب الماجن أفسد وأضرّ بالأمة من الحبوب المسمومة والفواكه الموبوءة.. إن القارة الإفريقية لايزال جزء كبير منها على فطرته، وهو حقل لجهودك وتربيتك، فأرسلي إليها دعاتك المبشرين، لتنقذي نفوس هؤلاء وتكتسبي قلوباً

■ إبتسامة الرضا من الشيخ أبي الحسن للدكتور عبد القدوس أبو صالح والأستاذ عبد النور الندوي.

...رئ لكل مالايوافق عليه.

تكون خيراً لك من الأمم الغربية التي تخطبين ودّها، وتحرصين على صداقتها وهي لاتدوم على حال».

وأذكر أن مقال الأستاذ الكبير قوبل بالاستحسان، وفتحت له المجلات الملتزمة مجال التحليل والتعقيب، حين رأت فيه صيحة مخلصة يقوم بها مرشد أمين.

هذا في مصر. وكذلك في غيرها من الدول التي سعدت برحلة الأستاذ الكبير إليها، أذكر أنه في زيارته لعمان عاصمة الأردن عقد ندوة تتحدث عن (حيرة الشباب المسلم : أسبابها وعلاجها)(٤) فكان الرجل صريحا، كعادته حين جعل من أسباب هذه الحيرة التناقض الصريح في التوجيه والإعلام والتربية، لأن الشاب يجد في تقاليد بيته المسلم مايسمع نقيضه في الصحف والمجلات، بل قد يسمع في المدرسة مالا يتفق وتعاليم الإسلام، فيقع في صراع فكري عنيف، وقد يقرأ صحيفة يحررها غير مسئول عن دينه وشرف أمته؛ فيجد بها مايدعو إلى الغواية والإلحاد، وقد شاعت بدعة القديم والجديد لترمي تراثنا بكل تأخر، وتدفع إلى محاكاة أعدائنا في كل ما تقترفونه، وهذا كله يحتاج إلى قلب نظام التعليم رأساً على عقب، يحتاج إلى أناس لديهم الأصالة الفكرية، فلا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب. كما أننا نعيش في عزلة من الشباب، ولدينا نحوهم كثير من سوء التفاهم وإساءة الظن، ولابد أن نسعي إليهم، لننقذهم من الانحراف، وذلك يحتاج إلى مخططات دقيقة؛ مخططات علمية مدروسة؛ يحتاج إلى أقلام بليغه، فلست متشائماً ولا يائساً، ولكني أدعو إلى الإصلاح».

وقد يكرر الأستاذ ما قاله في دولة زارها من قبل، لا لأنه لايجد مايقول، بل لأنه يجد الداء مشتركاً، والطبيب حين يكتب دواءً مماثلا لمريضين يعانيان من حالة واحدة لايكون مكررا للدواء، بل يضع الأمر في موضعه الصحيح، وقد كانت المملكة العربية السعودية ذات نصيب كبير من رحلات الأستاذ، لأنها أقرب البلاد إلى قلبه، ولأن الإسلام بها يجد متنفسه الذي لايجده في دول شقيقات، وقد حظي بلقاء الملك فيصل، وقدم له خطاباً يحمل مقترحات مخلصة صادفت قبول الملك الكريم، وهكذا كان أبوالحسن يرحل ليدق الناقوس، فهو سفير متنقل في بلاد الإسلام، ولا أنسي أن أشير إلى كتبه الثلاثة(١) «مذكرات سائح في الشرق العربي»(٢) «من نهر كابل إلى نهر اليرموك»(٣) «أسبوعان في المغرب الأقصى» ففي هذه الآثار القوية بتوجيهها وتشخيصها ونقدها الصائب، ما يضع الرحالة الكبير في مقدمة المصلحين الكبار من أبناء هذا القرن دون نزاع، وكم يردع القارىء أن يجد في صفحات هذه الكتب الخالدة، أوصافاً دقيقة لبلاد عزيزة علينا جميعا، هي أفغانستان وإيران وسوريا ولبنان والعراق والأردن، أوصافاً لاتتجاهل مابهذه الدول من مؤسسات ثقافية وهيئات علمية. ومبلغ تمسكها بالعقيدة الإسلامية، أو مجافاتها في بعض اتجاهاتها، وما أحدث ذلك كله من آثار سلبية.

أما رحلة الداعية الكبير إلى الولايات المتحدة وكندا بدعوة من الطلاب المسلمين في الدولتين، فقد وصفها الكاتب في سفر خاص، وهي ذات مذاق مختلف عن الرحلات الخاصة ببلاد الإسلام، لأن المسلمين في أمريكا وكندا محدودو النشاط، ولكن عليهم - في رأي الأستاذ - أن يحافظوا على كيانهم الإسلامي في بلاد الغربة، وأن ينظروا نظرة واعية إلى الحضارة الغربية. فيعرفوا أوجه النفع وأوجه الضرر، وهم بعدُ المثل الناطق للمسلمين، في مرأي جيرانهم من ذوي الديانات المختلفة، أو ممن لايدينون بدين مطلقا، وإذا كانت حضارة أوربا وأمريكا تجد الدعاية الكافية ذات الإغراء الخالب، فعلينا أن نقيسها بمقياس الحضارة الإسلامية التي تستمد أصولها من شريعة الإسلام، وقد قوبل الداعية الكبير بأسمي مظاهر التبجيل، وأقيمت الحفلات المتعاقبة لتكريمه، وماجاء الرجل المتواضع ليتصدر حفلات التكريم، بل قدم حاملا مصباح الهداية لمن يفتح عينيه على النور المبين.

كانت السعودية ذات نصيب كبير من رحلات الشيخ

■■ المقال الناري:

عاد الأستاذ الداعية من رحلاته المتتابعة، لا ليكتفي بانطباعه الخاص، بل ليسجل مارأي ويسمع، والتسجيل لديه لايعني وصف ماشاهده فحسب، بل لابد أن يعرض الداء ثم يكتب الدواء، واطلاع الأستاذ الكبير على روعة الماضي، وفداحة الحاضر؛ هذا الاطلاع الشاسع الممتد في آفاق التاريخ الإسلامي في شتي ربوعه ماضياً، وهذه النظرات المتأملة الممتدة في آفاق العالم الإسلامي حاضرا، حملت الكاتب على السرعة في العلاج، وعلى النظر الباهر للماضي والحاضر؛ ليصير علاج المريض الهامد ـ الذي كان بالأمس عملاقا يتوثب ـ نافعا مصيبا، وللأستاذ خيال رائع، يقرب به الحقيقة التي يريد أن يتحدث عنها، فليس خياله الأدبي تهويمات طائرة في الفضاء، كما نري لدي بعض من يرسمون الصور الباهتة، دون أن تلفت الأنظار إلى ماوراء الصورة من الحقيقة. وقد قال النقاد ـ وأكثروا من القول ـ بأن وظيفة الخيال تقريب الحقيقة، وتدعيمها وتأكيدها، وليست وظيفة الخيال الشطح البعيد عن الحقائق، والإغراق في تصورات تضل ولاتهدي! لقد أراد الداعية الكبير أن يتحدث بعد رحلاته المتتابعة عن المسلمين بين الأمس واليوم. فكتب مقالا(٥) هو من أنفس ما قيل في موضوعه، كتبه تحت عنوان (بين الصورة والحقيقة)، وهو جدير أن يدرس على الطلاب في جميع المعاهد والكليات؛ نظرا لمغزاه الدقيق. فقد جعل الأستاذ الصورة البعيدة عن الحقيقة مثل الثمار المصنوعة من الخزف، تتراءي للناظر كأنها تفاح، أو رمان، أو عنب، أو موز، أو برتقال، في لونها وشكلها، ولكن أين الصورة من الحقيقة؟ وأين طعم الثمار ورائحتها؟ إنها ليست إلا للزينة أو المثال، لأن الصورة لاتستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها، ولاتمثل دورها، فإذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة، إذ لاتتحمل عبء الحقيقة، إن صورة إسلامنا اليوم وصورة كلمتنا لاتقدران أن تتغلبا على عاداتنا الحقيرة، وتقهرا شهواتنا، إننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد، ومنا من يعرف مايقول، ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر، إن أصحاب النبيِّ ﷺ كانوا على حقيقة هذه الشهادة؛ فإذا قالوا : «لا إله إلا الله» اعتقدوا أنه لا إله غيره، ولارب سواه، ولانافع ولاضار إلا هو، أما نحن فنقولها ونغفل عن معناها حين، نرجو الخير من الأعداء، ونترك إله الكون الوهاب، إن أكبر انقلاب وقع في تاريخ هذه الأمة هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة، واستولت على حياة الأمة من عهد بعيد من التاريخ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها، لقد حرس الإسلام المسلمين بالصورة فترة طويلة فلم يجترىء عليهم أحد، ثم تجرأ التتار عليهم في بغداد وما وليها فانهارت الصورة. وأصبحت عاجزة عن أن تدفع المكروه، وكل مانقرأ في تاريخ الإسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال، هو أثر انخذال الصورة وفضيحتها لاغير، لقد فضحتنا الصورة في كل معركة أو اصطدام، والذنب؛ ذنبنا لأننا حملنا عبء الحقيقة على الصورة فجاء الخذلان!

هذا المقال الناري (وأرجو الا أكون أخفقت في تلخيص نقاطه الهادفة) يرسم وجوه الإصلاح إذا أردنا أن نسير في الطريق الصحيح، وقد كرر الأستاذ الكبير معناه الرائع في أبواب شتي من تاليفه، لأنه يعتقد أن بدء البرء العاجل أن نعرف مكامن الداء القاتل. وهاهو ذا قد عرف موضع الداء ووصف الدواء.

ولكن كيف السبيل إلى النهوض من هذه الكبوات المتلاحقة، لقد فكر الأستاذ في رجال اليوم وفي بعض شبابه، فوجد التربية المدرسية والإعلامية في أكبر بلاد الإسلام قد ضلت سواء السبيل، إذ خضعت أجهزة التعليم إلى النظام الأوربي، فأحدثت فجوات هائلة بين عقيدة الطالب المسلم، وماتوحي به المقررات المستوردة؛ من

...ها الأقرب إلى قلبه، ولأن الإسلام يجد بها متنفسه.

انفصام عن مبادىء هذه العقيدة، والعلاج الصحيح في خطواته الأولى أن نبدأ بالنظر في أساليب التربية، المتخذة دستوراً راسخا لاتتخطاه بعض هذه الدول، ثم ننظر في تربية النشء وفق مقررات هادفة، تعرف طريقها الصحيح. بدل الكتب المترجمة، وأشباه المترجمة، بما يضل النشء عن حقيقة تاريخهم المجيد، ودينهم الرشيد، لقد ألقي الأستاذ أبوالحسن محاضرة هادفة في مهرجان ندوة العلماء المنعقد بتاريخ ٢٦/١٠/٩٥ هجرية تحت عنوان (أهمية نظام التربية والتعليم في الأقطار الإسلامية) وكلمة الأقطار الإسلامية لايلتفت إليها إلا أمثال أبي الحسن الندوي ممن يحسون أن العالم الإسلامي وطن واحد؛ فقد رأينا من أشياع أوربا من يجزئون الوطن الواحد إلى عدة مناطق، مدعين أن كل منطقة لها بيئتها الخاصة، التي تحتم أن يقدم لها مقرر خاص يختلف عن مقررات جارتها، ومراعاة البيئة وظروفها المحلية قد تكون نافعة في علوم الزراعة والتجارة والاقتصاد! ولكن كيف يختلف المقرر في مناهج التاريخ واللغة والدين تحت ستار مموه كاذب مفضوح، لقد التفت الأستاذ إلى خطر التجزئة، حين تحدث عن أساليب التربية بالأقطار الإسلامية بعامة؛ فذكر أول ماذكر أن كثيرا من التربويين في هذه البلاد يحكمون في مناهجهم التعليمية ومؤسساتهم التربوية نفراً من الإخصائيين والمستشارين من البلاد الأوربية، ثم هم يرسلون البعثات من أبنائهم؛ ليرجع الطلاب ملزمين بما رأوه من المناهج هناك. وكأنها قرآن منزل! فكانت النتيجة وجود طبقة مضطربة العقائد، والسير والأخلاق، وهي في أحسن أحوالها مذبذبة بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية، وفي كثير من الأحيان تنسلخ عما يدين به مجتمعها الإسلامي كل الانسلاخ! إن عملية التربية في أمة من الأمم ليست بضاعة تصدر إلى الخارج، أو تستورد إلى الداخل، كالمصنوعات والمواد الخام، والمخترعات التي لاتخص بلداً دون بلد، وإنما هي لباس يفصل على قامة الشعوب، وملامحها القومية وتقاليدها الموروثة. والتربية في صحيحها وسيلة راقية مهذبة، لدعم العقيدة التي يؤمن بها شعب أو بلد، وتغذيتها بالاقتناع الفكري، القائم على الثقة والاعتزاز، وقد دارت مناقشات الندوة حول كلمة الأستاذ، ولاقت من القبول التام ماجعلها موضع التنفيذ المباشر، لدي من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أما رعاية النشء فذات عبء خاص، يجب أن ينهض به كل من يستطيع المشاركة في تحمله، وقد بدأ الأستاذ بتأليف سلسلة كتب خاصة بالأطفال، ثم بمن يعلوهم من تلاميذ المدارس؛ متوسطة وثانوية، وتأليف الكتب للأطفال شاق عسير، لأنه يتطلب مراعاة العقول الغضة، واختيار ما يناسبها؛ تعبيراً وتفكيرا وتوجيها، وقد اقتحم هذا الباب نفر من مقلدة الغرب، فكتبوا للأطفال سلاسل الرعب والفزع، وملأوا كتبهم بأساطير المردة والشياطين، وفيهم من حاول أن يقتطع قصصاً من إلياذة هوميروس، لتكون غذاء الأطفال في الشرق الإسلامي، ويعتبر ذلك سبقاً حضاريا لامثيل له، هذا العناء المتراكم في كل مكان قد دفع الأستاذ أبا الحسن إلى أن يكتب للطفل، كما يكتب للشاب، وكما يكتب للرجل، لأنه جندي كان من قدره المحتوم أن يحارب في شتي الجبهات. وقد أصدر سلسلة (قصص النبيين للأطفال) في خمسة أجزاء، جعلها على صغرها في الحجم ميداناً لغرس الفضائل الخلقية، بل لغرس العقيدة الإسلامية الصحيحة، بحيث تغني عن بعض مايسمي بدروس التوحيد، وقد قرأ الشهيد سيد قطب بعض أجزاء هذه السلسلة النادرة، وقال في تقديمه: «لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال، بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وشاركت في تأليف مجموعة (القصص الديني للأطفال في مصر) مأخوذا كذلك من القرآن الكريم، ولكن أشهد في غير مجاملة، أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة - يريد قصة موسي عليه السلام — جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات دقيقة، وإيضاحات كاشفة، لمرامي القصة، وحوادثها ومواقفها،

شُغلَ الشيخ أبا الحسن بغذاء الشبيبة من الأدب العربي

ومن تعليقات داخلية في ثنايا القصة، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقر في قلوب الصغار أو الكبار».

■■ توجيه الناشئة:

فإذا تركنا مرحلة الطفولة إلى مايليها من مرحلة الصبا فإننا نجد السيد أبا الحسن لايغفل عن توجيه الناشئة في هذه السن الغضة فقد كتب سلسلة كتب تحت عنوان (القراءة الراشدة) من ثلاثة أجزاء، فاختار من الموضوعات مايهدف إلى بناء الكيان الإسلامي الصحيح ومن التعبيرات مايصلح أن يكون زاداً للقارىء المتطلع يحفظه ويحرص عليه ليكون مدداً له في التعبير الصحيح، أما قواعد اللغة من نحو وصرف وبلاغة فقد كلف بعض الأساتذة بالتأليف فيها ورسم الخطة في التيسير. وقام بمراجعة هذه المؤلفات قبل أن يتداولها الطلاب! لقد كان الإمام محمد عبده يريد بعد إخفاق الثورة العرابية فى مصر - أن تكون التربية الإسلامية وسيلة لإعداد جيل ناشيء ينهض بمكافحة المستعمر الغاصب. كما يفهم أصول دينه على وجهه الصحيح. نادى الامام محمد عبده بذلك، ودعا المؤلفين إلى إعداد الغذاء الروحي الكفيل بتربية الشبيبة المسلمة، وقد انتظر الأستاذ الإمام طويلاً حتى نهض نفر من المخلصين في تنفيذ خطته، وكان السيد أبوالحسن الندوي في طليعة من قاموا بهذا العبء عن كفاءة تامة، ضربت المثل للكثير من تابعيه فجعلوا يقتفون أثره مغتبطين.

مما يشغل الأستاذ أبا الحسن غذاء الشبيبة من الأدب العربي، فقد نظر إلى السائد المشتهر من هذا الغذاء في قاعات المدارس والجامعات فوجده يقف عند حدود الأدب الصناعى، إذ احتل الميدان أمثال ابن العميد والصابي والصاحب بن عباد والحريري والقاضي الفاضل، وأدب هؤلاء أدب صنعة — في أكثره — واقتصار الشباب على مطالعة هؤلاء إجحاف بالأدب العربي في أفقه الفسيح، لذلك كانت رياسته المباركة لرابطة الأدب الإسلامي العالمي توجيهاً جديدا للأدب الإسلامي بعامة والأدب العربي بخاصة، وقد لاقت الرابطة في ضوء توجيهاته السديدة من الترحيب في العالم الإسلامي جميعه ماعقد عليها أكبر الآمال، فبدأت تؤتي أكلها بإذن الله، وقد افتتح أبوالحسن (نظرات في الأدب) بكلمة ممتازة تحت عنوان (نظرة جديدة إلى التراث العربي) بدأها بالإشارة لمحنته القاسية التي أصيب بها الأدب العربي حين تسلط عليه من سماهم بأصحاب التصنع والتكلف، الذين جعلوا الأدب حرفة وصناعة، ليصلوا به إلى أغراض شخصية محضة، فحجب هذا الأدب فيضاً من الأدب الطبيعي الذي يملأ صحف المكتبة العربية، وقد جاء في بحث ديني أو كتاب علمي أو موضوع فلسفى، جاء في السيرة المطهرة، وفي نصوص الحديث النبوي الشريف، وفيما تركه أمثال أبي حامد الغزالى وأبي الفرج الجوزي وأبي حيان التوحيدي وابن حزم وابن القيم، وأصحاب الرحلات الجغرافية الذين وصفوا الأماكن المشاهدة وصف استقصاء وشمول، وأصحاب التراجم والطبقات من أمثال الخطيب البغدادي وابن عساكر وياقوت وابن خلكان، مؤكداً أن وصف الشخصية أو ترجمة الذات ليستا من السهولة بحيث يستطيعهما الجميع، ولكن العالم الدقيق، والأديب الحساس هما اللذان يقومان بهما على أحسن وجه يتاح. وقد باشر أبوالحسن فيضاً من هذه التراجم في مؤلفاته البارعة، عن رجال الفكر والدعوة في الإسلام في أجزاء أربعة تعتبر موسوعة أدبية حافلة، ومن خصائص المؤلف أن يفطن إلى مضمون كلمات قد يمر بها القارىء مراً عابرا. ولكنها تحتمل من المعاني مايفتح الله به عليه فيمد بفيض من الخواطر نعجب كيف أدركه هذا الباحث الحساس! وقد قرأت ترجمات لبعض من خصهم أبوالحسن عند من كتبوا عنهم سواه، وكأنها إحصاء «حسابى» يعتمد على التواريخ والأرقام فحسب، ولكن تراجم أبي الحسن ذات نبض حي

كانت رئاسته لرابطة الأدب الإسلامي العالمية بادرة خير

جذاب حتى ليصلح بعضها أن يكون شعرا منثورا، ومرجع ذلك لاعتماده على إحساسه الحي، فيحسّه من يتفقون مع مشاعره الدينية، وأهوائه الإسلامية ممن صدقوا الله فاجتباهم بفضله، وقد جعل أبو الحسن الصدق أساساً للتعبير الجيد، فهو باعث الحرارة والنشاط، كما التفت إلى مقاييس أخري ليس من دور هذا البحث أن يستقصيها، ولكني أنتهي من هذه النقطة البارزة في اتجاه الباحث الكبير لأقول: إنه فتح الأبصار على كنوز مطمورة تراكم عليها الصخر بثقله الضاغط، ونسيها الوارثون من أهلها بل ربما عدُّوا كنوزها مزيفة مزورة لاتصلح للتداول في أسواق الأدب والعلم، فانبري الأستاذ الكبير ليحفظ لهذه الكنوز حرمتها، وليفسح لها الطريق كي تطمئن في مستقرها المريح!

قلت إن أبا الحسن قد يفطن إلى مضمون كلمة يمر بها القارىء مروراً عابراً، فلا يهتدي إلى أبعادها الشاسعة وأغوارها العميقة، وأضرب المثل بوقوفه عند كلمة واحدة جاءت في حديث البطل (ربعي بن عامر) حين واجه قائد الفرس رستم فسأله القائد : ما جاء بكم؟ فقال ربعي على البديهة! جئنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، فقد وقف عند كلمة «ضيق الدنيا» وقفه ما أظن أحداً وقفها من قبل، فقال فيما قال محللا قولة ربعي: «إني لأتساءل : ماهو الضيق الذي كان فيه الفرس؟ وماهي السعة التي كان فيها العرب؟ لقد قرر التاريخ وأجمع المؤرخون على أن الفرس والروم كانوا يعيشون في رغد من العيش، ويتقلبون في أعطاف النعيم، لقد اتسعت لهم الدنيا ولانت لهم الحياة! أما العرب فيعيشون في شظف، والمدنية لم تتعقد أمامهم بعد، فأين هي السعة؟ إن ربعي بن عامر كان ينظر إلى هؤلاء الملوك والأمراء كما ينظر العاقل إلى دمي قد كست ملابس فاخرة جميلة، وإلى تماثيل قد أحكمت صياغتها، وتأنق صانعوها في تصوير قسماتها وملامحها. ولكنها تماثيل من حجر أو جبس لاحياة فيها ولاحراك بها! وكان ربعي — كبقية المسلمين — يتمتع بالحرية التي عرف بها الإسلام، تنقله من دنيا ضيقة محدودة خائفة، دنيا المعدة والمادة، ودنيا الشهوات والأغراض، ودنيا الاستعباد إلى دنيا القلب والروح، والايثار والمساواة والعدل والرحمة وتلك هي السعة!

هذه سطور تنبيء عن صفحات أبدع الكاتب بها في تحليل كلمة «الضيق» وكلها معجب رائق فهل يصل أحد إلى استبطان هذه المفاد الدافقة من لفظ واحد غير ملهم بصير؟!

لقد طوفت في حديثي عن أبي الحسن ونسيت أن أذكر في مجال السيرة الذاتية، أنه انتخب أمينا عاما لندوة العلماء بعد وفاة أخيه الأكبر الدكتور عبدالعلى الحسيني سنة ١٣٨٠ وأنه أختير عضواً مراسلاً في المجمع العربي بدمشق سنة ١٣٧٥هـ وأنه دعي لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر في جامعة دمشق سنة ١٣٧٥هـ، واختير عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة سنة ١٣٨٠ هـ وعضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وانتخب رئيساً لهيئة التعليم الديني في الولاية الشمالية في الهند سنة ١٣٧٧هـ، وهو يعد بذلك إمام العصر، ورائد الاصلاح الديني والأدبي في وطنه الإسلامي الكبير، ولاأقول ذلك دون دليل، فمؤلفاته ساطعة، ومواقفه ناصعة، وألسنة القلوب تهتف بذكره في كل مكان ترفرف عليه راية الاسلام، وما عند الله أوفى وأجزل.

■■ الهوامش :

الأستاذ بجامعة الأزهر بمصر.

(١) صدي الأيام، للدكتور محمد رجب البيومي ص١٤٦.

(٢) مجلة الأزهر : عدد رمضان سنة ١٣٨٠هـ.

(٣) مجلة الرسالة سنة ١٩٥٠ ص٢٢٦ السنة التاسعة عشرة.

(٤) في مجلة الأزهر عدد شعبان سنة ١٣٩٨ تلخيص لندوة عمان.

أمن أن التربية لباس يفصل على قامة الشعوب